الفارس المملوكى

تألف الجيش المملوكى بمصر من أربع فئات وهى : فئة المماليك السلطانية وهم طوائف كثيرة تضم مماليك السلاطين السابقين ، أى القرانصة (١) ، ومماليك السلاطين الذين فى دست الحكم وهم المشتريات . ويعرفون فى المراجع باسم المشتروات أو الجلبان أو الأجلاب (٢) ، ومماليك الأمراء الذين ينتقلون إلى الخدمة السلطانية بسبب وفاة أو عزل أو مصادرة تلحق بسادتهم ، ويطلق على هذه الطائفة الأميرية اسم السيفية (٣) .

والفئة الثانية هى مماليك الأمراء وأرباب الدولة والوظائف ، ويعرفون باسم أجناد الأمراء ، والفئة الثالثة هم أجناد الحلقة الذين يجيئون من عناصر مختلفة من أصناف المماليك الذين تقدمت الإشارة إليهم فضلا عن بعض المتعممين (٤).

أما الفئة الرابعة فهى فى الواقع داخلة فى نطاق فئة الحلقة ، ولكنها ظلت مستقلة لاقتصارها على أبناء السلاطين الأمراء والمماليك ، ونشأ هؤلاء الأبناء وتربوا فى دار الإسلام وحمل معظمهم أسماء عربية ، بل التحق بهذه الفئة الضيقة عدد كبير من الفقهاء ، ويعتبر أولا الناس أرقى أفراد فئة الحلقة (٥) .

---

(١) انظر Ayalon, David : Studies on the Structure of the Mamluk Army p. 217 (Reprint from the BSOAS 1954 XVI.

(٢) الظاهرى : زبدة الفكرة ص ١١٦ .

(٣) العرينى : نظام الفروسية زمن سلاطين المماليك (غير مطبوع) ص ٢١ .

Ayalon : op. cit. XVI, I pp. 220-222.

(٤) الظاهرى : زبدة كشف المماليك ص ١١٦ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٦ . Ayalon : op. cit. II p. 449

(٥) Ayalon : Op. Cit. II p. 4501451

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٣٥ ا .

النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

منتخبات حوادث الدهور ١٧٤ — ١٧٥ .

ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ .

وجاءت عناصر الجيش المملوكي من أجناس مختلفة . وأولها جنس الترك ، وهو اسم جنس للمماليك الذين جاءوا من بلاد قبجاق حيث جرى امتزاج التتار والمغول بالترك في هذه البلاد (١) . ونشطت حركة جلب الرقيق من العناصر التي خضعت للتتار على يد تجار أجانب . وأقبل أبناء الملوك من الأيوبيين على اقتناء أعداد كبيرة من ذلك الرقيق لإنشاء الجيوش الكافية لحروبهم الداخلية ، فأكثر الصالح أيوب من شراء المماليك بعد أن تبين له فساد الخوارزمية وعدم الاعتماد عليهم (٢) . ولذا جاء معظم السلاطين في العصر المملوكي الأول من بلاد القبجاق . ومن الطبيعي أن يعتمد كل منهم على مثل ما نشأوا فيه من جيوش مملوكية معظمها من جنسهم . وكان لاستمرار الحرب بين ملوك التتار في الشرق أثر كبير في كثرة السبي من النساء والصبيان الذين جيء بهم إلى مختلف الأسواق في مصر والشام ولاسيما زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون (٣) . ووجد الجنوية وغيرهم من التجار في السلطان مغنما ، فأمعنوا في الاستيلاء على : أولا التتار وجلبهم إلى ثغر كفا بالقدم ، وضاق طقطاخان ملك القبجاق بهذه التجارة فأرسل جيشاً إلى كفا وضرب أوكار تجار الرقيق بها ، غير أن ذلك لم تمنع تجارة الرقيق أو يقلل من نشاطها (٤) . أما الجراكسة وهم الذين يلون الترك في الأهمية في تكوين الجيش المملوكي فكانت منازلهم ببلاد قبجاق الجنوبية بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتعرضت مواطنهم لإغارات الدولة الخوارزمية ، فأخذت كثيراً من رجالهم أسرى وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم التجارة الخوارزمية رقيقاً إلى الأقطار الإسلامية . واشترى المنصور قلاون عدداً كبيراً منهم وأنزلهم في القلعة ، إمعاناً في إبعاد العناصر الشمالية من القبجاق التتاريين الذين تألفت منهم الظاهرية مماليك بيبرس وأولاده من الجيش المملوكي (٥) . وازداد شأن الجراكسة فيما جرى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٤ ج ٦ : ٤٥٨ .
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٥ .
العينى : عقد الجمان ج ٥٢ ص ٤٢٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ٣٨٤ .

(٤) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ٤٦٠ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٩١ .

من الحوادث والفتن التى وقعت أواخر عصر بيت قلاون ، وما زالوا حتى أعادوا برقوقاً إلى السلطنة فأحسوا بقوتهم ؛ وحاول برقوق كبح جماحهم غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، فتكونت بذلك دولة الجراكسة ، وأقبل كثير منهم على الهجرة إلى مصر . واستغلوا رابطة الجنس فى سبيل الحصول على امتيازات كثيرة . ودخل الجيش كذلك عناصر أخرى من الخوارزمية والأكراد والعرب والتركمان والمصريين .

على أن المقصود بهذا البحث هو دراسة ما وضعه سلاطين المماليك من نظم وقواعد لتنشئة الفارس المملوكى من فئة المشتروات من المماليك السلطانية الذين يعتبرون أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ومنهم توفر الإمرة رتبة بعد رتبة (١) .

ويعتبر التاجر الذى جلب المملوك إلى مصر أول حائز له وأول أستاذ له . واشتهر بعض التجار أحياناً باسم تاجر الخاص ، وأصبح الواحد منهم مكلفاً بجلب المماليك للسلطان ، ولذا عهد بهذه الوظيفة أحياناً إلى أمير من أمراء المماليك (٢) . وإذا وصل تاجر المماليك إلى القاهرة لقى أنواع الحفاوة من السلطان (ولاسيما أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون) ، فضــــلا عن مسامحته من المكوس والمقررات السلطانية (٣) . ويشير المقريزى إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان أكثر السلاطين سخاء فى شراء المماليك ، وبلغ ما دفعه ثمناً لمملوك واحد مائة ألف درهم أحياناً مما جعل الأب يجد سعادته فى بيع ابنه إلى تاجر يجلبه إلى مصر ؛ واقتدى الأمراء بالسلطان فى ذلك (٤) . وأدى ذلك إلى زيادة أثمان المماليك عند شراء التجار لهم حتى بلغ ثمن الواحد منهم عشرين ألف وثلاثين ألف وأربعين ألف درهم (٥) . غير أنه يبدو أن الناصر لم يدفع أثماناً بهذه الضخامة إلا

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨٧ .
ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٢٩٦ ا ، ب .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨ — ٤٠ ، ج ٤ ص ١٣٨ — ١٣٩ .
(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥ .
الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .
(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ، ص ٥٢٥ .

مرتين وذلك حين اشترى صرغتمش بخمسة وثلاثين ألف درهم فضلا عن تشريف أستاذه ومسامحته فى عدة مقررات [1] ، وحين دفع مائة ألف درهم فى شراء ملكتمر الحجازى [2] لما اشتهرا به من جمال الخلقة وطول القـــامة وحداثة السن [3] .

وجرى العرف أن يشترى السلطان المماليك الجدد من أموال الدولة (بيت المال) . وهو الذى يتولى عتقهم . فاذا حدث أن توفى سلطان من السلاطين ولديه من المماليك من لم يعتق ، اشتراهم السلطان الجديد مرة أخرى ، على أن يذهب جزء من ثمن الشراء لأسرة السلطان المتوفى [4] . ويتعلق بهذا الموضوع ما ورد من نصوص عما جرى حين عزل السلطان الناصر محمد بن قلاون نفسه عن السلطنة سنة ٧٠٩ ، إذ بعث السلطان المظفر بيبرس إلى الناصر بالكرك يطلب إليه إرسال المماليك الذين عنده لأنه اشتراهم من بيت المال [5] ، فأثار بيبرس بذلك مسألة فقهية وهى أن الناصر اشترى جميع مماليكه من بيت المال ، وليس له الحق من الناحية القانونية فى الاحتفاظ بهم بسبب عزله عن السلطنة . ولما عاد الناصر إلى السلطنة سنة ٧٠٩ استدعى الفقهاء وأقام عندهم البينة بأن جميع مماليك السلطان المظفر بيبرس وجميع ما وقفه من الضياع والأملاك اشتراه من بيت المال ، فوافق القضاة على ذلك، وتقرر تصفية تركة المظفربيبرس، واستوفى بيت المال ماله من حقوق عنده [6] .

ويرسل السلطان مشترواته من المماليك إلى الطباق حيث ينزل كل منهم فى

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٥٣٦ .
(٢) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٥٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥٢ .
المقريزى : الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ٤٠٤ .
(٣) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٦ .
(٤) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٦٧٢ .
المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٧٧ أ ، ٤٠٤ ب .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٥٣ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ، ص ٢٥٤ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ، ص ٢٥٧ .

طبقة جنسه ليتلقى التعليم الديني والحربي . وقامت الطباق بساحة الإيوان بالقلعة لسكنى المشتروات من المماليك وتعليمهم ، وربما ظل المملوك مقيما بها بعد عتقه ، واشتملت كل طبقة على عدة مساكن تتسع لألف مملوك [1] . ومن المعروف أن الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ،وأنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة ، وشيد جواره طبقة للمماليك [2] ، وسار على سنته فى إنشاء الطباق من جاء بعده من السلاطين . غير أنه يبدو أن الناصر محمد بن قلاون حرص على أن تكون الطباق فى مكان واحد ، فأمر بهدم ما يقع بينها من المبانى والقصور ثم جمع فيها فئات المماليك السلطانية جميعاً،وجعلها الظاهرى اثنتى عشرة طبقة [3] على الرغم من أن المصادر المملوكية المعاصرة ذكرت من أسماء الأطباق ما يزيد كثيراً عن هذا العدد ، مما يرجح أنها لم توجد كلها فى وقت واحد ، بل طرأ عليها كثير من التغيير والتعديل ، وربما تغير بعضها إلى اسم آخر . وهذه الأطباق التى تردد ذكرها فى المصادر المملوكية هى : الرفرف ، والطازية والزمام ، والأشرفية ، والحوش ، والغور والمقدم ، والصندلية ، والخازندار ، والميدان ، والمستجدة ، والقاعة ، وقراجا ، والأربعين ، ومرجان الخازندار ، والخروب ، والطبقة البرانية . ويتبين من ذلك أن عدداً كبيراً من الأطباق حمل أسماء طواشية أو أسماء وظائف تولاها أشخاص معينون على شئون هذه الأطباق [4] .

ويكاد المقريزى ينفرد عن سائر المؤرخين بشرح تربية المماليك فى الطباق بالقلعة ، وخلاصته أن الرسم كان فى أول عهد السلاطين المماليك ألا تجلب التجار سوى المماليك الصغار . فأول ما يبدأ به فيها اصطلح العرف على تسميته

(١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .
ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٨٨ .
الظاهرى: زبدة كشف الممالك ص ٢٧٧ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .
(٣) الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .
(٤) العرينى : نظام الفروسية ص ٥٥ — ٥٧ .

يرسم الكتابة (١) : هو أن يحفظ المملوك أجزاء من القرآن الكريم ، ولكل طائفة من المماليك فقيه يحضر إليها كل يوم . ويأخذ في تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار . فاذا شب الواحد من المماليك : علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار إلى سن البلوغ : قام معلم بتعليمه أنواع الحرب ، من رمى السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف ونحو ذلك . وإذا ركب المماليك إلى لعب الرمح لا يجسر جندى ولا أمير أن يدنو منهم .

وينتقل المملوك بعد تمرينه وعتقه إلى الخدمة : فيتدرج في أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء : فيبلغ ذلك بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب . وجنح بعض المماليك إلى الدراسة الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية فصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب .

وكيفما كان الأمر اعتنى السلاطين بتربية المماليك في هذه الأدوار الأولى من حياتهم ، فجعلوا عليهم أزمة من الخدم وأكابر من رؤساء النوب . يفحصون عن حال الواحد منهم . ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته . فاذا علم أحد منهم أن مملوكاً من المماليك اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة على قدر جرمه.

وأجرى السلاطين لطباق المماليك الرواتب الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلوى والفواكه والكساوى ؛ وتكون كسوة المملوك عند نزوله بالطباق من الثياب القطنى البعلبكى ، ومن الثياب الكتان الخام المتوسط : فضلا عن المعاليم من النقود . ثم رخص السلطان برقوق للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج : فنزلوا من الطباق إلى المدينة وتزوجوا من نسائها ، غير أنهم لم يلبثوا أن أخلدوا إلى البطالة والعافية ونسوا حياة الطباق وصرامتها : ثم تلاشت الأحوال وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها ، لتفضيل المماليك للراتب النقدى أيام السلطان فرج

---

(١) المقصود برسم الكتابة تعليم المملوك ، والسر فى ذلك أن أكثر المشتريات فى هذا العصر الأول من المماليك الصغار ، ولذلك سموا المماليك الكتابية (انظر المقريزى : الخطط – بولاق ج ٢ ص ٣١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٣) .

ابن برقوق فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المصلوق عجزاً عن شراء اللحم (١) .

ثم تطور الجلب من المماليك فأصبح من الرجال من أرباب الحرف وممن ضاق به العيش فى بلاده ، وهبط مستوى تعليم المماليك سواء فى الدين أو الفنون الحربية ، ورأى السلطان فرج أن يترك المماليك الكبار وشأنهم ، فتغيرت الأحوال ، وصار المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم ، فكان ذلك من عوامل خراب مصر والشام (٢) .

وقام على تعليم الفروسية للمماليك معلمون اشتهروا بإجادة فنونها المختلفة من الطعن بالرمح والضرب بالسيف والرمى عن القوس ، وألف بعض هؤلاء المعلمين والأساتذة كتباً تناولت أصول الفروسية وآدابها ومراحل التعليم الحربى ، والطرق المختلفة لتلقين المتعلم أساليب الفروسية ، وممارسة الألعاب التى تساعد على الاتقان والإجادة مثل الرمى فى القبق والقيقج ولعب البرجاس والصوالجة وسوق المحمل ، فضلا عن تعرف الأدوات الحربية .

ففى الرماية مثلا يبدأ الأستاذ فى تعليم الرمى لتلاميذه من المماليك باتخاذ قوسين لينتين ، يطرح إحداهما بين يدى المتعلم والأخرى بين يديه ، فيبدأ أولا بتعليمه كيف يقبض ، وكيف يمد بالأصابع الثلاثة حتى يصح قبضه ، ويتطلب ذلك وحده أياماً ومراناً . ثم يعقد الأستاذ على الوتر من غير سهم ويشد أصابعه عليه حتى يستقيم عقده ، ويتبعه المتعلم فى ذلك من غير رمى ، فيطلق الوتر فارغاً أياماً حتى يصح إطلاقه . ثم يأخذ الأستاذ فى تعليم المملوك إطلاق السهم من القوس بغير ريش ، فلايزال به حتى يعلمه التفويق والاحكام فى الرمى وذلك بالتدرج رويداً رويداً من قوس التعليم اللينة إلى قوس أقل ليونة حتى يبلغ خمس أقواس متفاوتة فى القوة ، وتكون الخامسة هى الصالحة للعمل فى الميدان . فاذا تمكن المتعلم من الرمى عليها ، أخذ فى شد القسى الشديدة ونزعها جهد طاقته ، وتمرس فى استخدامها ليلا ونهاراً . وعلى المتعلم أن يسمى عند الابتداء ويكبر عند الإطلاق ويصلى على رسول الله بعد ذلك ، وعلى الأستاذ

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .
السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٤ — ٥٢٥ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .

أن يشكر تلاميذه ويشجعهم ليزدادوا رغبة فى التحصيل والتعليم ، فيروض تلامذته ويؤلف بينهم ويحرضهم على العمل ، ولا يوبخهم إلا خلوة ليجتهدوا فى الطلب ويكثروا فى احترام الموضع الذى خص بالرمى ، ولا يرضى لأحد أن يتكلم فيه بفاحشة لأنه مسجد [1] .

فإذا صح رمى المتعلم ورمى الإماج أياماً على غير علامة أو هدف ، — والاماج هو رمية السهم قاب قوس واحد [2] — خرج إلى الصحراء ورمى فى الفضاء على غير علامة كذلك . فاذا رأى سهامه فى الهواء صحيحة مستوية غير مضطربة رجع إلى الأستاذ ليعلمه الرمى إلى العلامة ، وذلك بأن يمرنه على الوقوف تجاه العلامة منحرفاً قليلا ، ويجعل العلامة محاذية لعينه اليسرى ؛ وركبته اليسرى واستواؤها على أصابع رجله قبالة العلامة طولا ، ورجله اليمنى عرضاً ؛ ويجعل بين الرجلين فرجة قدرها ذراع ، فيكون عقب الرجل اليسرى قبالة بياض الرجل اليمنى من داخلها ، ويعتمد على رجله اليمنى ويخف برجله اليسرى [3] ويرمى المتعلم أول يوم خمسة أرشاق وأقل من ذلك على قدر قوته وإحكام صنعته ، ثم يعمل على زيادة الرمى حتى يمهر فى ذلك وتكثر صوائبه [4] .

وعلى الرامى أن يتعرف العيوب والآفات التى تعرض للرماة فى نظرهم وبدنهم ، وعليه أن يقف على علل القسى والنشاب ومعرفة إصلاحها ، كما ينبغى أن يكون على علم بتقويم نشابه وقوسه وعقد أوتاره وإصلاح عيوبها ، فضلا عن معرفة أحكام الرهن والرمى الحلال والسباق والمناضلة ، فاذا عرف ذلك صار رامياً ودخل فى جملة الرماة [5] .

وعلى هذا النحو سار مؤلفو كتب الفروسية فى شرح قواعدها وأساليب تعليمها للمتعلمين حتى ينتهوا من دراستهم .

---

(١) كتاب بغية المرامى ص ٢٨ ب .

(٢) ابن القيم : الفروسية ص ١٠٧ .

La distance à laquelle un arc peut lancer une flèche (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٣) كتاب بغية المرامى ص ٤ ب .

(٤) علم الفروسية ص ١١١ ب (مخطوطة بدار الكتب رقم ٥ م فنون حربية) .

(٥) كتاب بغية المرامى ص ٢٧ ب .

وفى أثناء المراحل المختلفة لتعليم المماليك فى الطباق أشرف على هذه المراحل كلها جماعة الطواشية ، لأنهم المسئولون عن سلوك المماليك وتربيتهم ومراقبة عدم اختلاط الكبار بالصغار منهم .

وجرت العادة فى مراحل التعليم بالطباق أن لا يتناول المملوك الصغير راتباً أو أجراً ، ولا يملك سلاحاً ولا حصاناً ، ولا يحصل على إقطاع ، فاذا تم عتقه يخرج السلطان له خيلا وقماشاً (١) وبذا يصبح من المماليك السلطانية ، ويحصل من السلاح خاناه على جميع أنواع الأسلحة من السيوف والقسى والنشاب والرماح والدروع والقرقلات والأطبار وغيرها (٢) . أما الخيل فتأتى من اصطبل الجوق الذى يختص بخيول الخرج (٣) . وعند العرض يحصل هذا المملوك على إجازة بانتهاء تعليمه يطلق عليها عتاقة ، لأنها تشير إلى عتقه ، وإلى أنه غدا جندياً مدرباً ، ويطلق على هذا العرض الذى يعتق فيه المماليك بعد الفراغ من مراحل تعليمهم المختلفة « خرج » أى التخرج . غير أنه لا يوجد بالمراجع المعروفة ما يوضح تماماً مدة مراحل التعليم للمملوك الكتابى ما عدا ما ذكره ابن تغرى بردى فى عتق ططر زمن السلطان برقوق بأن « عادة برقوق جرت بأنه لم يخرج لمماليكه خيلا إلا بعد إقامتهم فى الأطباق مدة سنتين ، وأنه لا يخرج فى سنة واحدة خرجين . وإنما يخرج فى كل مدة طويلة خرجاً من مماليكه ، ثم يتبعه بعد ذلك بمدة طويلة بخرج آخر ، وهذه كانت عادة ملوك السلف (٤) » . ومع ذلك لم يحفل سلاطين الدولة المملوكية الثانية بمدة تعليم مماليكهم ، بل اهتموا بتخريجهم أفواجاً بعضها تلو بعض فى سرعة غير محمودة ، وكان هذا عاملا من عوامل الضعف (٥) .

وجرت العادة بأن يعتق المماليك جماعات ، ولم يحدث أن مملوكاً أعتق

(١) المقصود بالقماش هنا رداء الخدمة وما يرتبط به من الأدوات الحربية كالسيف والتركاش وغيرها (انظر .Mayer : Mamluk Costume p. 77)

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٦ .

(٣) الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ، ص ٥٠٩ .

(٥) العرينى : نظام الفروسية ص ٩٧ – ٩٨ .

بمفرده ما عدا جقمق الذى تولى السلطنة فيما بعد ، وذلك لظروف استثنائية ، إذ أن أخاه جاركس القاسمى المصارع من أعيان خاصكية السلطان برقوق سعى عند السلطان ، فاشتراه من أحد الأمراء وجعله من المماليك الكتابية بطبقة الزمام ، ولم يستمر جقمق فى هذه الطبقة مدة طويلة ، بل أعتقه برقوق بمفرده بفضل ما لأخيه من مكانة عنده ، فصار من المماليك السلطانية ، وبذا نالته السعادة وارتقى فى الوظائف فى سرعة (١) .

وحرص السلاطين على ألا يعتقوا مماليكهم قبل سن البلوغ ، فيظل المملوك الذى يدخل الطباق فى سن مبكرة عدة سنوات حتى يعتق . ويعلق المملوك أهمية كبرى على عتقه وفقاً لقواعد الشريعة ، فاذا تبين أن مملوكاً من المماليك لم يجر عتقه على هذا النحو ، فيعتبر باقياً فى رق من اشتراه وملكه أو فى رق ورثته ولو بلغ فى هذه الحالة رتبة أميرمائة . ومن هذا القبيل ايتمش الاسندمرى الذى بلغ رتبة أميرمائة زمن السلطان برقوق ، ولما تبين أنه ما زال فى رق ورثة الأمير جرجى نائب حلب ، اشتراه برقوق من جديد وأعتقه وجعله أتابك العساكر (٢) .

الواضح الآن أن طبقة ممتازة نشأت بمصر من طوائف المماليك ، وتعين على الفرد منهم أن يكون فى الأصل رقيقاً ، وأن تتحقق فيه شروط خاصة ، منها أنه لا يكون قبل جلبه إلى مصر مسلماً أو من أصل إسلامى ، إذ أن الرق لا يجرى على المسلم ، كما ينبغى أن يكون المملوك مولوداً خارج الدولة المملوكية ببلاد القفجاق تفضيلا فى العصر المملوكى الأول أو ببلاد القوقاز والجركس فى العصر المملوكى الثانى ، وأن يكون جلبه فى سن مبكرة ، وعلى الرغم من أن هذه الشروط لم يعتد بها فى كثير من الحالات ، فانها ظلت موضع تقدير بدليل أن أبناء المماليك الذين ولدوا فى مصر وغيرها من بلاد الدولة المملوكية لم يعتبروا من الطبقة الممتازة ، ويدليل أحوال الوافدية والمستأمنين فى العصر المملوكى الأول وأحوال جماعات الهجرات التى جاءت إلى مصر فى العصر المملوكى الثانى .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٤ — ٣٥ .
(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ٩٩ .

ومن المعروف أن هؤلاء وأولئك صاروا فى أجناد الحلقة أقل شأناً من المماليك السلطانية الذين اتخذوا وسائل كثيرة للمحافظة على طبقتهم وامتيازاتها .

على أن الرق فحسب لم يكن كفيلا بنجاح المملوك ، فمثلا إذا اشترى أحد العوام مملوكاً من المماليك ، فلا يواتيه حظ المملوك الذى يشتريه السلطان أو الأمير ، والمعروف كذلك أن مملوك الأمير يقل فى الرتبة والمكانة عن مملوك السلطان ، وأن من العقوبات الصارمة التى يفرضها السلطان على أحد المماليك السلطانية أن ينقله إلى خدمة الأمراء ، واتبع سلاطين المماليك هذه الخطة معظم الأحيان لإبعاد مماليك السلاطين السابقين لهم ، فوزعوا غير المرغوب فيهم على الأمراء حتى يخلو الجو للسلطان ومماليكه السلطانية (١) .

والمماليك السلطانية الذين تلقوا تعليمهم وتدريبهم بالطباق إنما يتخرجون جنوداً فحسب ، فالعتاقة التى يحصلون عليها عند الانتهاء من هذا التدريب ليست إلا شهادة تمنح للمملوك وتشير إلى أنه أصبح حراً ، وأنه أتم تعليمه . ويتضح من تراجم الأمراء والسلاطين التى وردت فى المصادر المملوكية أنهم تساووا جميعاً فى المرحلة الأولى من حياتهم ، إذ جلبهم التجار أرقاء ودخلوا فى ملكية أحد السلاطين ، ثم نزلوا بالطباق حيث تلقوا تعليمهم الحربى ، ثم نالوا العتاقة وحصلوا على الخيل والقماش فبلغوا بذلك مرتبة الجندية .

ويختار السلطان من هؤلاء المماليك بعد تخريجهم من الطباق عدداً يلحقهم بخدمته ويختص بهم لصفات فيهم . ويطلق على هؤلاء الخاصكية فيتدرجون قبل تأميرهم فى وظائف الجمدارية والسلحدارية والبجمقدارية ، ويسيرون فى سلم الترقى أسرع من سائر المماليك السلطانية (٢) .

وظلت قواعد تربية المماليك التى وضعها سلاطين الدولة المملوكية الأولى مرعية سائدة حتى أوائل العصر المملوكى الثانى ، غير أنه أصابها من التغيير والتبديل ما جعل المؤرخين يطلقون على أولئك السلاطين الأوائل ملوك السلف ،

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ٦٦ ص ٣٤٨ ، ٣٥٢ .
ابن تغرى بدوى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٩ ، ٢٧٧ .

(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ١٠٧ .

وإذا أطروا عملا قام به سلطان من سلاطين العصر المملوكى الثانى فان إطراءهم يكون بسبب مطابقة هذا العمل للقواعد القديمة (١) .

وجرى التقليد منذ قيام الدولة المملوكية الأولى على أنه إذا تأمر أحد من المماليك ، نزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش وأوقدت له شوارع القاهرة ، فيسير إلى المدرسة الصالحية ببين القصرين ويحلف عند قبر الصالح أيوب بالقبة بجوار هذه المدرسة ، ويحضر تحليفه حاجب الحجاب وخاصكية السلطان ، ثم يمد السماط السلطانى لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الأمير ، ثم يخرج الأمير فى موكب من القبة الصالحية إلى القلعة (٢) . وأدخل سلاطين بيت قلاون تقاليد وقواعد جديدة ،منها اتخاذ المدرسة المنصورية مكاناً يجرى فيه الاحتفال بتنصيب الأمير ، ومنها ركوب الأمير فرسه تحت السنجق يحف به الأمراء ، وطلوع الأمير إلى حضرة السلطان بالقلعة حيث يبوس الأرض ثم يقبل يد السلطان (٣) .

وحرص كل سلطان أن يجعل الأمراء من مشترواته ليضمن ولاءهم له والمحافظة على ملكه ووضع هذه السياسة الصالح أيوب ، وجرى سلاطين المماليك على هذه السنة (٤) .

على أن ترقية المماليك السلطانية فى وظائف الدولة وما يتبعها من الانتقال من رتبة إلى أخرى خضعت لاعتبارات مختلفة منها علاقة المملوك بالسلطان ، فالخاصكية أسرع المماليك فى الترقية . أما الاعتبار الثانى فهو العصبية والجنسية ، وتجلب أهمية هذه القاعدة منذ أخذ نفوذ البرجية أو الجراكسة يشتد بعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى السلطة للمرة الثانية بفضل ازدياد نفوذ الأمير بيبرس الجاشنكير ، فغدا نواب البلاد الشامية من البرجية وخجداشية بيبرس فقوى أمره بهم (٥).

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٦ ، ٥٠٩ .
منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٧٨ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢١٩ .
المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .
(٣) العينى : عقد الجمان ج ٦٢ ص ٢٤٨ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ .
(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، ٦٧١ — ٦٧٢ .
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٣٦٨ ا .

وازداد شأن صلة القرابة فى دولة الجراكسة فأصبح القفز إلى الرتب العليا دفعة واحدة أمراً مألوفاً ، وساد فى هذا العصر المملوكى الثانى محاباة السلاطين وكبار الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والاقطاعات[1] فى غير نظام .

ومن الاعتبارات التى لها أهميتها فى الترقية أيضاً ما يرتبط به المماليك معاً من صلات الزمالة فى الرق والعتق والعمل والخدمة ، ويطلق على هؤلاء الرفقاء خجداشية أو خشداشية [2] . وأثرت هذه الرابطة فى اختيار السلاطين . فاذا تولى السلطان الحكم عمل للخشداشية كل حساب . ومن الأمثلة على ذلك ما اشتهر به السلطان أيبك من المداراة لخشداشيته والصبر الطويل على مناوءتهم له وسوء أخلاقهم [3] . وحرص السلطان بيبرس الجاشنكير على تعيين خشداشيته نواباً فى الممالك الشامية [4] . ولم يصل كمشبغا بن عبد الله الحموى اليلبغاوى إلى وظيفة أتابك العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق إلا لكونه خشداشه [5] . واشتهر السلطان خشقدم بالعطف على خشداشيته فرقاهم إلى الوظائف العالية [6] .

ومهما يكن لهذه الاعتبارات المختلفة من أهمية فى ترقية المملوك فى وظائف الدولة ، فان سلاطين المماليك لم يغفلوا ما للفروسية وإجادة الفنون الحربية من التقدير والاعتبار عند ترقية المملوك ولاسيما فى العصر المملوكى الأول . ففى أثناء مهاجمة السلطان بيبرس انطاكية سنة ٦٦٦ حدث أن تمكن جندى من أسر كنداصطبل عم هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وأحضره إلى السلطان فأعطاه بيبرس عشرة طواشية وأمره بحمل رفك كنداصطبل على سنجقه المملوكى الإسلامى [7] . وتأمر محمد بن أمير سلاح بكتاش الفخرى زمن السلطان قلاون لأنه اشترك رغم صغر سنه فى محاربة الأمير سنقر الأشقر الذى خرج على طاعة قلاون

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٤٣ ب ، ٤٥٦ ا ، جـ ٢ ص ٦٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٥ ب .
(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ١١٤ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٣٢ .
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٦٨ ا .
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٧ ا .
(٦) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٠١ ، جـ ١٠ ص ١٦٤ .
(٧) العينى : عقد الجمان جـ ٥٥ ص ٥٣٩ .

وأعلن نفسه سلطاناً فى دمشق (١) . وأبى قلاون أن يستجيب لرجاء الأمير طرنطاوى نائب السلطنة بالديار المصرية فى الانعام بإقطاعية فى الحلقة على ولده وولد الأمير كيتغا الذى تزوج بابنته لأنه لم يرهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف يوماً من الأيام (٢) .

ولم تعين المصادر المملوكية عدد السنوات التى يقضيها المملوك لارتقائه من رتبة إلى أخرى ، بل اكتفت بالإشارة إلى ضرورة مضى مدة لطبقة على قول ابن تعزى بردى . فمثلا بعد أن أتم المملوك شيخ تعليمه بالطباق ، وأخرج له السلطان برقوق خيلا وقماشاً وجعله فى حملة الحمدارية ، نقله برقوق بعد مدة لطبقة إلى الخاصكية ، ثم بعد مدة أخرى أصبح شيخ ساقياً ، وصارت له مكانة عند السلطان ، ثم صار أمير عشرة سنة ٧٩٤ ، ثم أمير عشرين ثم أربعين وبذا أصبح أمير طبلخاناه . ولما تعين الأمير ايتمش للوصاية على المملكة بعد وفاة برقوق أعطى للأمير شيخ سنة ٨٠١ تقدمة ألف وهى أعلى المراتب ، أى أن شيخاً استغرق فى سلم المراتب المملوكية بعد تأميره نحو ثمانى سنوات ، ولم يزل يناضل حتى بلغ كرسى السلطنة سنة ٨١٥ (٣) .

وليس الاقطاع هو كل ما يحصل عليه المملوك بعد عتقه من أرزاق ، بل يتقاضى كذلك أنواعاً مختلفة من النفقات والرواتب فى أوقات معينة ، فمنها الجامكية وهى الراتب الشهرى الذى يصرف للمماليك السلطانية (٤) ، والنفقة وتمنح فى أوقات غير منتظمة وعلى الأخص قبيل تسيير الحملات الحربية ، فتعطى للجندى أو الأمير لينفق منها على تجهيز نفسه ومماليكه وخيله (٥). ومن النفقة كذلك ما يوزعه السلطان كذلك عند توليته السلطنة على الأمراء والأجناد ، ففى سنة ٨٠١ حصل المماليك السلطانية على نفقة سلطنة الناصر فرج (٦) .

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ٦٣ ص ٤٨٠ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ – ٣٢٣ المنهل الصافى ج ٢ ص ١٨٩ ب
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٧ .
(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٨٢ – ٦٨٣ ، ٨٨٥ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦ – ٧ .

وأعطى السلاطين النفقة فى غير هذا وذاك من الأوقات استجلاباً للقلوب ، فجعل السلطان الناصر محمد بن قلاون لكل مملوك خمسمائة درهم وقرقل وخوذة ، وذلك سنة ٧٤٠ حين جمع الأمراء وحلف المجردين والمقيمين منهم لولده الأمير أبى بكر بعده (١) .

وحصل الأمراء والمماليك على الكسوة بالإضافة إلى الحوامك والنفقات فى الغالب ، كان توزيع الكسوة عليهم سنوياً ، غير أنه ربما أخذوها على دفعتين فى السنة ، للصيف والشتاء (٢) . وفى العصر المملوكى الثانى جرى التقليد على أن يصرف السلطان ثمن الكسوة للمماليك (٣) . ومن بين الكلف السلطانية توزيع الأضاحى على المماليك فى كل سنة ، فضلا عما تقدمه الحواصل السلطانية للأمراء فى كل يوم من رواتب اللحم والتوابل والخبز والزيت والعليق (٤) . ويفرق السلطان الخيل على مماليكه ، وكل من مات له فرس دفع إليه عوضه ، وجعل السلطان للأمراء والمماليك فى كل سنة إطلاقات بالأعمال الجيزية لربيع خيولهم من القرط (البرسيم) ، وما يدفع إليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتب لهم فى غير زمن الربيع (٥) .

وأشارت كتب الفروسية إلى أهمية قيام الفارس بإعداد فرسه باتخاذ ما يناسبه من أدوات الركوب كاللجام والسرج والركابين ، وتفقد سير الركاب

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤٩٩ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٥ .
(٣) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٣ .
ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٥٧ .
(٤) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥١ ، ٥٦ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٤ .
حرص سلاطين المماليك – ولاسيما فى العصر المملوكى الأول – على اقتناء الخيول الجيدة من بلاد البحرين وارمينيا الصغرى وشمال الشام والجزيرة وبلاد المغرب . انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٦ – ٥٢٧ .
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٧٠ .
العينى : عقد الجمان ج ٦١ ص ٣٥٨ .

والأبازيم ، واستخدام ما يصلح من اللبود للفرس عند القتال . ومراعاة كفايتها لتغطية خاصرتى الدابة . فضلا عن العناية بالبدادين والمرشحة لما لها من الأهمية فى سرعة الفرس وخفته (١) ، وتلبس الخيول عند القتال البركستوانات والوجوه الفولاذ (٢) .

أما عدة الفارس الحربية فتشمل أدوات الدفاع وأدوات القتال ، فمن أدوات الدفاع الدرع وهو جُبّة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام (٣) ويلبس عادة فوق قميص ، وقد يرتدي الفارس درعين . وبعض الدروع مفرط فى الطول حتى يبلغ الأرض ويغطى قوائم الفرس ويطلق عليه زردية سابلة أو مسبلة (٤) ويختلف الجوشن عن الدروع بأن الدرع مكون من حلقات متصلة فى شكل سلاسل ، بينما تكون الجوشن من حلقات يفصلها عن بعضها قطع صغيرة من الصفائح ، وساد استعمال الجواشن فى العصر المملوكى الأول ، ولم يستعملها إلا كبار الأمراء فى العصر المملوكى الثانى لارتفاع أثمانها(٥) ومن تعاليم الفروسية أن يدمن صاحب الجوشن لباسه بنفسه ، حتى يسهل عليه لبسه ، وأن يعلم تواليفه وخياطته ، وأن يكون معه سيور وخيوط وحلق وأبازيم وشفاه ، وأن يتعاهده كل يوم عند نزوله وإقامته ، وأثناء الشتاء والمطر والبلل ، يميطه عن علائقه ورباطه لئلا يفسد ، وأن يجعل الفارس تحت الجوشن حشوة حتى يدفع عنه الحر والبرد وضرب العمود (٦) . وفى العصر المملوكى ساد عمل القرقلات من الصفائح المتخذة من الحديد والتى يتصل بعضها ببعض (٧) ،

(١) كتاب علم الفروسية ٧٨ ا ، ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م) .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٦ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٦ .
(٤) Mayer : Saracenic Arms and Armor, p. 2 (Ars Islamica Vol. X. 1943).
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٦٠٨ .
(٥) Mayer : Op. Cit. p. 3
(٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٥ ب ، ٤٦ ا (مخطوطة رقم ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .
(٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٦ .

واشتهرت القرقلات المحفوظة بالزردخانات السلطانية بأنها مغشاة بالديباج الأحمر والأصفر ، ولم يخرج القرقل عن أنه زردية بغير أكمام مصنوعة من صفائح حديدية ومبطنة بالحرير (١) .

أما غطاء الرأس فقد ميّز القلقشندى بين نوعين : البيضة وهى آلة من حديد أومن زرد توضع على الرأس لوقايته من الضرب . وليس بها ما يرسل على القفا والأذان، والمغفر وهو كالبيضة . غير أن فيه أطرافاً مسدولة على قفا اللابس (الدارع) وأذنيه وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً (٢). والخوذة تطلق على كل ما يقى الرأس دون أن تدل على شكل من الأشكال .

والترس هو من الأدوات التى يتقى بها المحارب الضرب والرمى عن الوجه(٣) ويصنع من الخشب أو الحديد أو الجلد ، وللترس حمائل وسموطان ، يدخل الفارس رأسه فى وسط الحميلة ويجعل يده فى سموط ، ويضبط بالإبهام السموط الدائر (٤) . والتروس على أشكال منها المسطح والمستدير ومنها المستطيل فى أعلاه المحصر الوسط مما يلى أعلاه (٥) . واستخدم الفارس الساعدين والساق موزا لحماية يديه وساقيه (٦) ؛ أما الخف فمبطن بالزرد كذلك (٧) . وأشهر أسلحة الهجوم السيف والرمح والقوس ؛ فيشد الفارس السيف والتركاش فى وسطه ، ويأخذ الطارقة بشماله والرمح بيمينه ؛ ويجعل الخنجر فى خفه (٨) . وينصح معلمو الفروسية بأن يعمل الفارس على أن يتوافر له من الأسلحة ما يضرب ويطعن به ويرمى عنه (٩) ؛ فيفيد من العمود فى ضرب أنف الرجل ومقدم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢ . Mayer : Op. Cit. p. 4.
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .
(٤) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣٤ ا (مخطوطة ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .
(٥) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣٩ ب .
(٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٥ ا .
(٧) المقامة الصلاحية ص ١١ .
(٨) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .
كتاب علم الفروسية ص ١١ ب .
(٩) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٦ ا .

رأسه وعضده وخطم دابته (١) . أما الوهق فهو المقلاع ويعلقه الفارس فى مقدم قربوس سرجه من جهة اليمين (٢) ، والطبر هو البلطة وموضعه حلقة أعدها له الفارس فى سرج فرسه (٣) .

ويقوم كاتب الجيش بإضافة كل جماعة من المماليك السلطانية إلى مقدم من أعيانهم . ويميز أرباب الوظائف منهم من السلاحدارية والجربدارية والدمحدارية والجمقدارية ، والزردكشية والبندقدارية ، ومن السقاة والجمدارية والخزندارية والحراس والبشمقدارية وغيرهم ، ويضيف كل جماعة من كل طائفة منهم إلى شخص معين من جملتهم . وأما المماليك الكتابية فينتسب كل جماعة منهم إلى طبقة مقدمها من الطواشية . وينسب المماليك البرجية إلى مساكنهم ومقدمهم ، والأوشاقية إلى المقدم عليهم من الطواشية . ويرجع سائر المماليك السلطانية إلى مقدمهم الكبير ، ولا يكون فى الغالب إلا من الطواشية الأمراء (٤) . وهو الذى يعين مواقفهم فى أوقات البيكار والحرب وفى الأسفار حول الدهليز السلطانى (٥) .

على أن بيبرس المنصورى الداوادار ، وهو ممن اشترك فى مقاتلة التتار فى وقعة حمص سنة ٦٨٠ ، أورد وصفاً لما جرى من تعبئة الجيش المملوكى وقتئذ . فأشار إلى أن السلطان قلاون حين علم بقدوم التتار إلى حارم وامتلاكهم البلاد . أمر الناس أن يلبسوا فى كل يوم عدد الحرب ويركبوا ويصطفوا ليتمرنوا على الحرب . ثم أصلح ما جرى من نزاع بينه وبين سنقر الأشقر صاحب صهيون على أن يشترك بمن معه من الجنود والأمراء فى القتال ، وضرب السلطان دهليز الحرب الأحمر . وحين جاءته الأخبار بحركات العدو وعددهم وعدتهم رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين ، وبات المسلمون على

(١) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤١ ا .
(٢) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٨ ب .
(٣) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .
Mayer : Mamluk Costume p. 47.
(٤) النويرى : نهاية الأدب ج ٨ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٧٣ ا .

ظهور الخيل لابسين لامات الحروب مدرعين هم وخيولهم، وكتب صاحب حماه إلى السلطان بأن عدة جيش التتار ثمانون ألف مقاتل ، تحت القلب منها أربعة وأربعون ألفاً وهم طالبون القلب ، وميمنتهم قوية جداً ، ونصح بتقوية ميسرة المسلمين والاحتراز على السناجق (١) .

وجرت وقعة حمص يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠ ، وتكونت ميمنة جيش السلطان قلاون من عسكر حماه . وبعض أمراء الألوف ومضافيهم من أمراء الطبلخانات وأصحاب العشرات ومقدمى الحلقة وأجنادها وغيرهم من العسكر ، ونائب الشام وأمراء الشام والعسكر الشامى ، وفى رأس الميمنة أمراء عربان البلاد الشامية ومن انضم إليهم ، أما الميسرة فشملت بعض أمراء الألوف ومضافيهم كذلك ، وفى رأس الميسرة التركمان بجموعهم وعسكر حصت الأكراد (٢) . وفى الجاليش وهو مقدم القلب نائب السلطنة ومضافوه من الأمراء والمغاردة ومماليكه وأجناده وبعض المقدمين ومن معهم من المماليك السلطانية . ووقف السلطان تحت السناجق وحوله مماليكه والزامه والسلحدارية والسنجقدارية والطبر دارية (٣) . وبدأ القتال بتركيز العدو هجومه على ميمنة جيش المنصور ، فثبتت العساكر للقتال والتفوا على التتار فمالوا على ناحية جاليش (مقدم) القلب ، غير أنهم منوا بالكسرة والهزيمة وانهزم ملكهم منكوتمر وولى هارباً (٤) . فتكون قلب الجيش من المماليك السلطانية وهم الذين تعرضوا للصدمة الأولى من العدو المهاجم وهم الذين قرروا مصير المعركة .

على أن نظام الفروسية المملوكية حمل فى طياته بذور الانحلال والفناء حتى إذا تجمعت هذه البذور أواخر الحكم المملوكى لأسباب سياسية واقتصادية وحربية فقد هذا النظام روحه وجوهره ، وظل محتفظاً بالمظهر الخارجى حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادى .

---

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .

(٤) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .

فالواضح أن القواعد التى قامت عليها الفروسية المملوكية ترتكز إلى ما حصل عليه المماليك من تدريب حربى ودينى أثر فى خلقهم وحدد سلوكهم ومستقبلهم ، فضلا عما التزمه هذا النظام من ولاء المملوك وإخلاصه لسيده ووفاقه فى الرق والعتق . وتقدير كفاءة المملوك عند ترقيته فى الرتب والوظائف ، وطول المدة فى الطباق حتى تتأصل فى نفس المملوك الصفات التى تخلق منه فارساً ملماً بأصول الفروسية .

غير أن هـــذه القواعد أصابها كثير من الخلل والاضطراب . فلم يعد السلاطين الجراكسة يحفلون بأن تطول مدة بقاء المملوك فى الطباق . فيخرج مفتقراً إلى التدريب الجيد والخلق القويم والولاء الصحيح . يضاف إلى ذلك كثرة جاب البالغين من المماليك الذين جاءوا بعد أن تكونت أخلاقهم وامتهنوا حرفاً فى بلادهم ، وكثير من هؤلاء المجلوبين يمتون بصلة القرابة والنسب للسلاطين والأمراء فى مصر ، فضـــلا عن هجرة عدد كبير بسبب ما حاق ببلادهم من خراب نتيجة إغارات تيمورلنك . فنقلوا معهم مساوءهم ورذائلهم ، فغدوا مصدراً للشر والفتنة فى البلاد ، ونسب إليهم المقريزى ما أصاب البلاد من خراب (١) .

ومن العوامل التى أضعفت هذا النظام ارتباطه بنظام الحكم ، إذ تأثر ولاء المملوك بما أصاب نظام الحكم من هزات وضربات . فالمحاولات التى قام بها السلاطين فى العصر المملوكى الأول لجعل الحكم وراثياً لم تحظ بالموافقة الإجماعية من الأمراء . ومن الأمثلة على ذلك ما بدا من مقاومة الأمراء لحكم ابن ايبك ولحكم السعيد بن بيبرس واضطرار الناصر محمد بن قلاون إلى التخلى عن السلطنة لبعض الأمراء الأقوياء (٢) . وفى عصر الجراكسة أهمل مبدأ الوراثة نهائياً مع المحافظة على مهزلة تولية ابن السلطان المتوفى مدة قصيرة جداً ، فأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان إلى آخر . ففى عصر الجراكسة أصبح المماليك المشترون هم الدعامة الوحيدة التى يرتكز عليها السلطان فى مقاومة

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .
(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ٢٣٦ .

الفئات الأخرى من المماليك السلطانية ، وعلى الأخص مماليك السلاطين السابقين المعروفين بالقرانيص . فالسلطان ومشترواته هم الذين يتمتعون بالسلطان والنفوذ والثروة ، إذ جرى السلطان على أن يفسح لهؤلاء المشتروات الطريق ليظفروا بالقوة والسلطة ، فضلا عن الإكثار من عددهم ، ولعلّ هذا هو السر فى أنه كلما ارتقى سلطان جديد دست السلطنة أجرى عقب توليته حركات تطهيرية عنيفة ترمى إلى التخلص من مماليك السلطان السالف له فى الحكم ، فأقصاهم عن وظائفهم وألقى بهم فى السجن أو نقلهم إلى جهات نائية أو إلى خدمة الأمراء. ونجم عن ذلك أن تكون من المماليك السلطانية طوائف لم تكن متجانسة ولا متماسكة لأنها من عناصر مختلفة ومتعادية تدين بالولاء إلى سلاطين مختلفين ، ولم تجتمع هذه الطوائف إلا على كراهية المشتروات .وتوافرت أسباب هذه الكراهية زمن الجراكسة لقصر عهد سلاطينهم ، فتكونت منهم عدة تشكيلات انتمى أفرادها إلى السلاطين الذين اشتروهم وجلبوهم مثل الاينالية والحكمية [(1)] والخشقدمية ، وانصرف الاجلاب إلى إهمال الواجبات الحربية بعد أن ضمنوا لأنفسهم مصادر الثروة والسلطة والنفوذ مما جعل السلاطين يعتمدون فى حملاتهم الحربية على القرانصة برغم عدائهم للمشتروات الجلبان وحنقهم عليهم لما استأثروا به من الاقطاعات والرتب والوظائف . وتجلى ذلك منذ منتصف القرن التاسع الهجرى زمن السلطان اينال ، إذ طفحت المصادر المملوكية بأخبار ثورات الجلبان ونزاعهم مع العناصر المملوكية الأخرى فى الجيش ، فضلا عن استبدادهم بأمور الدولة وانقياد السلطان لهم [(2)] .

ويشير ابن تغرى بردى إلى ما وصلت إليه حال المماليك من الانهيار فى القرن التاسع الهجرى بأنهم مع قلتهم وضعف بنيتهم وعدم شجاعتهم ، غدا شرهم فى الرعية معـــروفاً ، ونفعهم عن النـــاس مكفوفاً ، على الرغم من أنه لم يقع فى هذا القرن لقاء مع خارجى غير وقعة تيمور وغزو جزيرة قبرص ،

(1) العرينى : نظام الفروسية ٢٣٧ .
(2) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ .
النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٤١ ، جـ ٧ ص ٤٥٢ ، ٤٦٢ .

ويذكر ابن تغرى بردى عن ضعفهم وعجرفتهم وعدم خبرتهم الحربية بأن الواحد منهم أنفه فى السماء ، ولا يهتدى لمسك لجام الفرس ، ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف ؛ جهادهم الإخراق بالرئيس ولا مروءة لهم (١) .

ووضحت أحوال الانحلال المملوكى تماماً حين أخذ السلطان الغورى يعد العدة من جانبه لمواجهة الجيش العثمانى سنة ١٥١٦ ، فحاول تسوية مشاكله الداخلية التى نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية من الجلبان الأحداث والقرانيص القدماء بسبب تأخر جوامكهم . وهال الغورى أن ينغمس مماليكه فى الفتنة مع ما بالدولة من حاجة إلى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة ، ومع ما بها من فقر وارتباك مالى بسبب استحواذ البرتغاليين على معظم تجارة الهند وأرباحها من أواخر أيام قايتباى ، ولم يبق لدى الغورى إلا أن يترضى مماليكه ففرق فيهم الأموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب (٢) . غير أنه ما لبث أن وقع الشقاق والنفار بين الفئات المختلفة من المماليك فى وقعة مرج دابق بعد أن أشاع خاير بك بين المماليك القرانصة أن السلطان أمر مماليكه الأجلاب ألا يتقدموا للقتال حتى يصدر أمره إليهم ، وفسر القرانيص ذلك بأنه خطة دنيئة من السلطان الغورى ليجزيهم وعدهم بما ارتكبوا فى حقه فى سابق السنين ؛ فكان ذلك سبباً كافياً لتثبيط الهمم وحلول الهزيمة بعد فرار جنود الميمنة والقلب (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .
(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٣ .
(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٩ .

المصادر والمراجع

ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم

تاريخ الدول والملوك — الأجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ (١٩٣٦ — ١٩٤٢) — نشرة الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين (منشورات الجامعة الأمريكية ببيروت) .

ابن إياس : محمد بن أحمد المصرى الحنفى

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — بولاق ١٣١١ — الجزءان الرابع والخامس — مطبعة الدولة باستانبول ١٩٣١ ، ١٩٣٢ .

ابن بكتوت الرماح : محمد

كتاب الفروسية وعلاج الخيل (ضمن مجموعة رسائل برقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن .

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (الأجزاء ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ : ١٩٣٦ ، ١٩٤٦ الأجزاء ٥ ، ٦ ، ٧ نشر Popper بكاليفونيا ١٩٣٢—١٩٣٥ ، ١٩١٥ — ١٩٢٣ ، ١٩٣٦ — ١٩٣٩) .

(٢) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — مخطوطة رقم ١١١٣ تاريخ ٣ مجلدات — بدار الكتب المصرية .

(٣) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور. نشر Popper بكاليفورنيا ١٩٣٠ ، ١٩٣١ .

ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٤ أجزاء حيدر آباد — الهند ١٣٤٨ — ١٣٥٠ .

ابن يعقوب الخيلى : أبو حزام

(١) كتاب الفروسية والبيطرة فى علامات الخيل وعلاجها — مخطوطة رقم ١٦١٠ طب بدار الكتب المصرية .

(٢) كتاب علم الفروسية —مخطوطة رقم ٥ م فنون حربية — بدار الكتب المصرية .

(٣) كتاب الخيل والفروسية — مخطوطة رقم ١٣٣٤ طب بدار الكتب المصرية (١)

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل القدسى

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . مطبعة وادى النيل — القاهرة ١٢٧٨ ، ١٢٨٨ هـ .

السخاوى : شمس الدين محمد

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — مكتبة القدسى — القاهرة ١٣٥٣ .

الظاهرى : خليل بن شاهين

كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك — نشر Ravaisse باريس ١٨٩٤ .

العرينى : السيد الباز

نظام الفروسية فى مصر زمن سلاطين المماليك (مخطوطة لم تطبع بعد) .

العينى : بدر الدين محمود

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ٧٠ مجلداً صورة شمسية بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤تاريخ .

القلقشندى : أبو العباس أحمد

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزءاً مطبعة دار الكتب المصرية .

---

(١) لم يرد اسم المؤلف فى المخطوطتين ٢ ، ٣ غير أنه تبين بعد مراجعة المخطوطات الثلاثة و مقارنتها أنها لمؤلف واحد وفى موضوع واحد برغم اختلاف العنوان .

المقريزى : أحمد بن على

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة الجزء الأول ١٩٣٤ – ١٩٣٩ ، الجزء الثانى ١٩٤١ – ١٩٤٢ .
(منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

(٢) كتاب الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من من الأخبار – مطبعة النيل ١٣٢٦ – طبعة بولاق ١٢٧٠ .

النويرى : أحمد بن عبد الوهاب

نهاية الأرب فى فنون الأدب – المطبوع منه ١٤ جزءاً – مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٩٢٣ – ١٩٤٣) .

بكتوت : بدر الدين بن بكتوت الرماح الخازندار الظاهرى المتوفى سنة ٧١١ هـ

كتاب علم الفروسية – مخطوطة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية

بيبرس المنصورى الداوادار :

زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة صورة شمسية رقم ٢٤٠٢٨ بمكتبة جامعة القاهرة .

زيادة : محمد مصطفى

نهاية السلاطين المماليك فى مصر (المجلة التاريخية – المجلد الرابع – العدد الأول – مايو سنة ١٩٥١) .

طيبغا الأشرفى البكلمشى اليونانى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م)

(١) كتاب الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية (مخطوطة رقم ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

(٢) بغية المرام وغاية الغرام فى الرمى بالنشاب (مخطوطة رقم ٩٣ فروسية بالتيمورية – بدار الكتب المصرية) .

لاجين : حسام الدين

كتاب الميادين (ضمن مجموعة رسائل فى الفروسية – مخطوطة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

يلبغا الأشرفى :

كتاب كامل الصناعتين فى الفروسية والشجاعة (فى المجموعة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

Ayalon, David : Studies on the Structure of the Mamluk Army.

I-III (Reprinted from the BSOAS 1954, XVI)

Mayer, L.A. : 1) Saracenic Arms and Armor (Ars Islamica, Vol. X. 1943).

2) Mamluk Costume, Genève 1952 Vol. X. 1943.

السيد الباز العرينى